عبد الرحمن منيف
عاشق الحياة ورفيق الضحايا والمعذبين

ابراهيم الداقوقي

عندما نعت أخبار دمشق وفاة الروائي عبد الرحمن منيف، أول ما تبادر إلى ذهني فكرة احترام الكاتب لذاته وكيف يمكن للإنسان أن يؤمن إنه أقوى من الطبيعة .... وبرغم انه ينهزم، بيد ان ثمة من يكمل المهمة (النهايات / 78-79) ولذلك فقد دخل جميع ابطال رواياته - اي منيف نفسه - في اشكالية العلاقة بين السلطة والمثقف، لانه كان يحمل في ضميره النقي مشروعا للاصلاح والتغيير واعادة بناء العالم، اكثر مصداقية من مشروع السياسي الرواغ والخائل حفاظا على مصالحه. لان منيف كان صادقا مع نفسه ومع الاخرين، شجاعا في الدفاع عن افكاره وانسانا شريفا "يقف مع الضحية دوما - اين ما كان - في بطولة رائعة، تجسد القيم الانسانية النبيلة في تعطلاتها الكبرى لاحتضان الحياة ومواجهة التحديات بتضحية وفداء بحثا عن المستقبل الافضل لانسان شرق المتوسط "حيث تبدأ الاصقاع العربية البتلى بالفقر - برغم البترودولار - والاستبداد والدكتاتورية والعنف الثوري غير الجدي والعنف الخاد، حتى نهاية الصحراء العربية ...." (من مقدمة رواية شرق المتوسط) الذي اتخذ منه منيف مسرحا لنشاط ابطاله وقاعدة لصياغة معظم رواياته، لانه كان رجل السلام والتسامح الاجتماعي والمودة والتسامح بين البشر اجمعين. ومن هنا، فقد تحدث عن معاناته الكبيرة وضجره وتمنزز ه من تعذيب البعثيين، للشيوعيين والعارضين لصدام حسين وزمرته الباغية بخاصة، تعذيبا نفسيا وجسديا في السجون والمعتقلات او اغتيالهم او اعدامهم السياسي لوضع بعامة. حيث تحدث منيف عن معاناة انسان شرق المتوسط، الذي يعده القابضون على الحكم فيه، او رخص الاشياء في وقت يتحدى فيه ذلك الانسان، التعذيب والسجون والمعتقلات والقتل، بينما يسكت المثقفون عن قضايا لا يمكن السكوت عليها، ضمن 536 صفحة من روايته الرائعة (الأن... هنا / او شرق المتوسط مرة اخرى). كما كانت رواياتها الاخت (شرق المتوسط) " صرخته المدوية في هذا الجو من الصمت تنبيها وتحذيرا عن تلك الغيوم السود الزاحفة، لعله يستطيع ان يفعل شيئا "قبل ان تدمر انسان هذه المنطقة، ويصبح مشوها بحيث لا يمكن انقاذه. ان شرق المتوسط لا تعني احدا، وتعني كل الناس ايضا". وها قد بدت تباشير نبوءة منيف عن الغيوم السود تزحف على المنطقة الاثيرة على نفسه، لتنشر الخراب والارهاب والاستبداد والاستغلال ولهيمنة فيها. بل ان هيام عبدالرحمن منيف بهذه المنطقة وحبه لانسانها وعشقه للحياة فيها، دفعه الى تأليف (منبر شرق المتوسط) في العاصمة (عمان) من مجموعة من الادباء والمثقفين ورجال الاعمال كرابطة تعنى بالادب والشخصيات الثقافية، بعد تركه للعراق. الذي لم يستطع ان يمكث فيه اكثر من خمسة اعوام (1976- 1981) برغم ان زوجته عراقية. وبرغم جميع الامتيازات التي اغدقها (الرئيس العراقي الخلوع) عليه لاسيما بعد ان سمع وربما رأى ايضا بالحاح من القيادة باعتباره رئيس تحرير مجلة النفط والتنمية وعضو الكتاب الاقتصادي في مجلس قيادة الثورة- مشاهد تعذيب وقتل للعارضين لاستبداد وطغيان وهمجية عصابة صدام حسين، التي استولت على السلطة في غفلة من الزمن. ولهذا فقد كان طوال تلك الفترة، ملازما للشعراء والادباء والعلماء العراقيين المعروفين باتجاهاتهم الفكرية الانسانية، شفيق الكمالي، (جبرا ابراهيم جبرا)، عزيز السيد جاسم، حسين مردان، د. رشيد الحيالي (عميد كلية الطب آنذاك) وعبد الستار الدوري. حيث كانوا يصفونه بانه انسان مرح ويحب رواية النكات والاستماع اليها، برغم مظهره الجاد وحياته الانعزالية وسكوته الطبق احيانا. وبرغم انني لم التق به الا مرة واحدة عند الشاعر شفيق الكمالي - رئيس تحرير مجلة (آفاق عربية) في مكتبه، عام 1977 عندما حملت الى الكمالي در استي عن "الانظمة الاذاعية في العالم، فان تطباعي عنه يتطابق مع تطباعات اصدقائه حول مرحه وحبه للنكات لمفارقة التي وقع فيها الصديقان دون قصد، حيث لم يتمالك منيف نفسه، فسأل شفيق فورا: -وهل السيد النائب، يقصد صدام حسين الذي كان انذاك نائبا لرئيس الجمهورية، يعمل هنا ؟!!!

وفي هذه الاثناء دخل الباحث عبد الجبار العمر، نائب المدير العام، وتوجه للسلام على منيف وبالاحضان، في وقت كان يرد فيه شفيق مع ابتسامة خفيفة من تحت شواربه الكثة:

-تفضل ابا يعرب بتقديم طلباتك للسيد النائب.

وعند ذلك تنبه المنيف الى القلب، فاستلقى على قفاه ضاحكا. ولكن شفيق الكمالي دفع حياته ثمنا لنكتة (السيد النائب) عندما انتشرت في اوساط المثقفين ووصلت الى السيد النائب لحقيقي (صدام حسين) فانتقم منه في اول فرصة عندما اصبح رئيسا للجمهورية عام 1979، حيث سجن شاعر شفيق الكمالي وزير الثقافة والاعلام وعضو القيادة القطرية لحزب البعث العربي لحاكم لمدة قصيرة بتهمة معارضة صدام حسين، ثم اطلق سراحه ولكنه توفي بعد فترة وجيزة، حيث تردد - والعهدة على الراوي - بانهم قد سقوه السم البطئ للفعول في السجن. وقد تكون هذه لحادثة هي التي عجلت برحيل عبد الرحمن منيف من بغداد مبكرا، عام 1981.

كانت روايات عبد الرحمن منيف مرآة لحياته للكافحة - التي تمثلها شخصية مرزوق رمز الانسان المضطهد - ضد القوى القاهرة من الحكام والطبيعة والبشر وصرخة مدوية لرفض الارهاب والظلم والاستبداد وتعبيرا عن عشقه للحياة والنضال معا، برغم اختلاف شخصيات رواياته للثقفة التي تلتقي حول اسم مرزوق الذي اغتاله لازلام الجلادين، والذين قالوا انه وجد مقتولا ،ولكن لا احد يعرف كيف قتل. ومن هنا كانت رواية (الاشجار واغتيال مرزوق) التي تعد منعطفا في الرواية العربية " تحمل بذور معظم الروايات التي تلتها" وكما اعترف منيف نفسه فيما بعد بهذه الحقيقة التي توجز نظرته الى الوجود والاله وخليفته " الانسان" على هذه البسيطة بكل معاناته الكبيرة. ثم أولم تقم العواصف الرملية الهوجاء " في تلك الصحراء الخيفة ... هذا البحر القاسي الذي ليس له بداية وليس له نهاية (رواية: النهايات / ص 64) باغتيال عساف، ذلك الصياد القروي الفقير الذي كان يوزع طيور القطا والكدري والحجل التي يصطادها على الفقراء في قريته الجديدة. التي تنتظر العون من الحكومة - وعلى موظفي الدولة الكبار الذين كانوا ياتون للصيد بمعونته - ويعودون بالحمل الوفير من الطيور والغزلان والارانب. ولكن عساف كان يقول بعد كل جولة صيد " لا تنظروا الي كوحش، انا انسان ،نعم انسان مثلي مثلكم، وليس بيني وبين أي مخلوق عداء من أي نوع ،انا، كانت الطيور والحيوانات تغريني فاطارد ها ،فلانني اشعر بحاجة اليها اكثر مما اشعر بالذة، وحتى لو كانت هناك لذة ،فانها لا تصل بالانسان الى حدود الابادة والقتل... نعم انا عساف الفهد، لا ارغب في الصيد لمجد القتل ولا اصيد اكثر مما يجب، الا في الاوقات الضرورية " (النهايات / -68 67)

نعم... تلك كانت فلسفة منيف في الحياة ،ومن هنا كان عساف، مثل صاحبه منيف، مغرما بالتحدي الى حد الجنون، وكذلك الفنان ضاري الذي تحدى معذبيه في السجن الانفرادي بعدم اعترافه على رفاقه الشيوعيين. يعكس صاحبه ابي مهند - في خليته " لان انهم ان تكون هناك إرادة، وهذه وحدها يمكن ان تعيد تشكيل العالم مرة اخرى. لا اعرف كيف سيكون عالم الغد، لكن لدى البشر الكثير من لجنون ورغبة الحياة، وهذا وحده كفيل بايجاد عالم جديد" (الان هنا / ص 532)، حتى انهمه لحارس بالجنون غير المنطقي لاصراره على التحدي برغم التعذيب الوحشي. لان منيف كان يؤمن بفكرة التضحية من اجل الاخر، وهو المعنى النبيل للمعاناة والتحدي، ليس دفاعا عن ايديولوجية حزب البعث العربي الاشتراكي التي آمن بها، وانما ايمانا بالفكر التقدمي الانساني البعيد عن اقصاء الاخر في اطار ادعوة الى التصالح الاجتماعي والسلام والمودة والاخاء ... ليس للانسان وحده، وانما لجميع المخلوقات على وجه البسيطة: لحيوان والنبات والجماد ايضا ،لانها - جميعا - صورة لجمال الخلق وآية من ايات الفن والحضارة والوجود. ولهذا فانه كان يؤمن بان "اختلاف البشر - ولحيوان ايضا - في الطبائع وحول بعض القضايا، امر طبيعي وموروث ،يجب الاعتراف به وقبول الاخر للعارض او المخالف رأيا وسلوكا دون رفضه او اقصائه. ومن هنا فقد وصف كل القتلى والغدورين سواء في المعارك والحروب العبثية التي خاضها صدام حسين، او اعدامه لمعارضي حكمه (لدكتاتوري بانهم شهداء خالدون. لذلك نجده يقول على لسان مختار قرية طيبة، في روايته (النهايات - 1991 / ص 158) "هكذا قال لي لجنود الضباط حين سألتهم عن ابني وعن الجنود الآخرين الذين يقتلون في المعركة. إنهم يدفنونهم بثيابهم، لأن هذه الثياب أقدس من جميع خام الدنيا. وبطريقة هازئة أضاف:

-ثم أنتم تعرفون، الطبيعة لا تجد من الخام ما يسترّ الأحياء فكيف تستطيع في سنة مثل هذه أن تسترّ الموتى؟

وعاد إلى لهجة لحسم:

-عساف لم يمت موتا طبيعيا، مات من اجل الطبيعة، مات شهيداً. وما دام في حياته رضي أن يكون بهذا الشكل، فانه لن يرضى أن يغير شكله في اللحظة الأخيرة!".

وبرغم ايمان عبد الرحمن منيف" ان النزعة موسوعي التفكير و رفعا راية حقوق الانسان في دعوته الى النهضة الشاملة في الوطن العربي من خلال المشاركة الشعبية في صناعة القرار السياسي بحرية وشفافية لتحقيق التنمية المستقلة المعتمدة على ذات وتركيم الثروات الوطنية مع الممارسة الديموقراطية. ولذلك فانه اكد في مقدمة كتابه (الديموقراطية اولا ... الديموقراطية دائما - 1991، ص 7) على انه "قد لا نكون، خاصة الآن، بحاجة الى الكثير من البراهين والادلة عندما رفض احد كتبة الدولة من الاكاديميين !!! ادراج اسم الكاتب والروائي المبدع عبد الرحمن منيف في كتابه (تاريخ الادب السعودي) بحجة " انه لم يعش حياته في السعودية "لكي يلغي هويته، فيضيف بذلك هما جديدا ومعاناة اخرى قاسية الى معاناته العديدة، التي لم يتحمل الامها فكان رحيله المبكر الى مثواه الاخير.

الى الاشتراكية او الوحدة، الى التقدم او القوة".

كان منيف عربي الانتماء انساني النزعة موسوعي التفكير و رفعا راية حقوق الانسان في دعوته الى النهضة الشاملة في الوطن العربي من خلال المشاركة الشعبية في صناعة القرار السياسي بحرية وشفافية لتحقيق التنمية المستقلة المعتمدة على ذات وتركيم الثروات الوطنية مع الممارسة الديموقراطية. ولذلك فانه اكد في مقدمة كتابه (الديموقراطية اولا ... الديموقراطية دائما - 1991، ص 7) على انه "قد لا نكون، خاصة الآن، بحاجة الى الكثير من البراهين والادلة عندما رفض احد كتبة الدولة من الاكاديميين !!! ادراج اسم الكاتب والروائي المبدع عبد الرحمن منيف في كتابه (تاريخ الادب السعودي) بحجة " انه لم يعش حياته في السعودية "لكي يلغي هويته، فيضيف بذلك هما جديدا ومعاناة اخرى قاسية الى معاناته العديدة، التي لم يتحمل الامها فكان رحيله المبكر الى مثواه الاخير.

تفاحة كبيرة عفنة

رياض الأسدي

قراء تعلب أبيض طوق الصدر والظهر نصف العاري، خطوات حادة وثابتة على ممر رخام إيطالي لامع، أضواء كاميرات خاطفة، وصيحات معجبين ومعجبات على الجانب الآخر من الشارع: هاأي، هاأي. لحذاء الصنوع من جلد التمساح والحقيبة السوداء الصغيرة المرصعة بزمرد شرقي نادر. هاهما في ترقب بوابي الفندق الفاخر الصينيين الذين تعلموا فن الاستقبال والانحناء الآليين، ابتسمت لهم كما هو تكيت الدخول، في وقت ذهب رجال حمايتها يهيئون الطريق مترا تلو الآخر على بعد مسافة، لقد حذرتهم من عدم تجاوزها لأنها لا ترغب برؤيتهم وهي يزلكفون قبالتها مثل ذئاب برية لاهثة.

عيناها صفراوان غريبتان وشعرها كتكوتي قصير. حينما وزنت نفسها قبل أسبوع، أخبرها طبيب التجميل الخاص بها، بأن لديها ثلاثة كيلو غرامات زيادة عن وزنها الجمالي وهو لا يتسلاءم وللقاسات العالمية. ابتسمت، ولم تهتم أول مرة، فحذرها من أن توثر زيادة أخرى على جاذبيتها وسحرها، ثم قدم لها سلسلة من النصائح في تناول الأغذية النباتية والتقليل من التدخين والسهر وتناول الكافيار.

كان يضرب لشل دائما بضيق خصرها وآخر مرة أخبرها (ج) وهو يقبلها في حوض الليموزين الخلفي، بأن خاتم سليمان وضع على مقاس خصرها، وهو يحتضنها بشدة، قالت:

-هل لكان ملائم يا سيدي؟

-لا.

-سأوفيك في أي مكان وزمان تختاره إذن.

-لا أبدا.

-لماذا؟

-هنا!

هوس آخر كل ما كان. وما إن اقتربت من الصفد لخاص لكبار رجال الأعمال في الفندق حتى شعرت برغبة غريبة في البكاء، وسألت على حين غرة دمعة هاربة، حاولت أن تمنع نفسها من الجحيم!!

خادم الصعد الصغير الذي ضغط على زر سري ليفتح الباب سراعا وقال:

-آنت بخير سيدتي.

كادت أن تنهار.

.....

-هل أستدعي الطبيب؟

.....!

-بم يمكنني أن أخدمك؟ آأنت على ما يرام؟

-أسكت؟

وحيدة في ذلك الصندوق الكهربائي الصاعد بشوة، أرقام الطوابق الضوئية الحمر حازت الخمسين، لم تشأ أن تستخدم شفرة الطابق السري. واستمر الصعد بالارتفاع. تمالكت نفسها قليلا وبحثت عن الرقم السري في حقيبتها؛ كان سهلا وبسيطا تماما: (16 س م) وما أن طلبت ذلك، حتى توقف الصعد فجأة، وعاد الى النزول من جديد. أخبرها (ج) بأن الرقم السري يتغير كل شهر تقريبا، لأنها الغلوب!

-أصف مرى أخرى!

في الجناح الخاص كل شيء هادئ، تماما مثلما طلبت، أثاث شرقي وأرائك مخملية ووسائد براقة، وعطر نفاذ، وصوت عزف عود خفيف. كانت اللوحات التي زينت الجدران لفنانين مستكشفين من القرن التاسع عشر. عرفت رساميها بسرعة لأنها قد حضرت في مزادات اللوحات النادرة في السنوات الأخيرة، وحينما دققت فيها مليا، عرفت، بأنها، لوحات قد قلدت على نحو بارع! مطت شفتيها، وتنهدت، من جديد، هاهم من جديد..

الفراش الوثير والرائحة المسكوتن الرحالية، خزانة ملابس نوم نسائية مسلفنة: هنا يأتي الأصدقاء لواحد تلو الآخر، تلو الآخر، تقريبا، (ج) وحده، من يكسر القاعدة يأتي في أي وقت يشاء، الابتسامات نفسها، واللقاءات نفسها، والوداعات نفسها أيضا، ثم لا شيء بعد ذلك، لا شيء تماما: الشعر المنفوش على الربا العارية ودخان السكائر ورائحة الشمبانيا النادرة.

قالت:

-وداعا.

-وداعا!

-متى نلتقي في الرة القادمة؟

-يتعلق ذلك بظروفنا..

-آه. ما أصعب تلك الكلمة..

-أجل. ما أصعبها!

ترى هل يتأخر (ج) هذه الليلة؟ إنه أهم شخصية في أجندة أصدقائها، أحيانا، يزرعها ليلة كاملة دون أن يفي بموعده، ربما اعتاد حوض الليموزين الخلفي. لكنه لما يزل يطلب منها الجيء إلى هذا الجناح في كل أول شهر تقريبا.

-هل يمكن تغيير المكان؟

-إنه أفضل مكان لنا.

-رائحة الشرفا!

-رائحة الشرفا!

-أشعر بملل غريب..

-هل ذهبت إلى طبيب نفسي؟

-لا.

-لماذا؟ الأطباء النفسيون مهمون في هذه الأيام.

-هذه الدينة هي الفايروس القاتل.

-التفاحة؟

-التفاحة!

طالما شعرت بالحاجة إلى هواء نقي تتشممه من شرفة منزلية واطئة. ضغطت على زر فتح الستارة، فبدت الدينة مثل وحش ضوئي قابع. ستنتظر (ج) حتى الصباح إذن، شهقت من جديد، وشرعت بخلع ملابسها حتى تعرت تماما، ثم أطلقت الرصاص من مسدس صغير أخرجته من حقيبتها نحو ظهر الوحش.

مائدة

يحيى صاحب

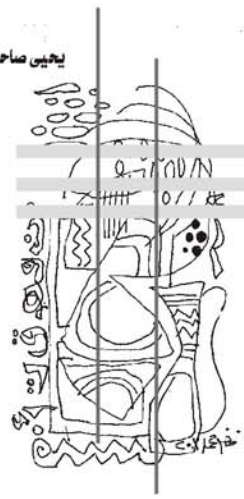

لا ظلها الباهت
فوق السطح
هذا. ولا نجمتها
لا أوزة الرياح
تلك، التي تعبرنا، ليلاً، إلى
أين؟ المدى
في بؤبؤ الساعة
دائرة. تدلهم
أن يكون خط الأفق
من ورائها
أوضح.
ألغاز!
قالوا: مفاتيح.
وباب العالم المغلق
أمغلق، دوماً؟

الا يفتح
على المرايا
مرة، نهراً؟
هل لدى عندك هذا القلب؟
والأبد المنكب
الا صدى
أضاع صوتاً؟
في الفراغ المترامي
ماتوا. أجل.
ماتوا.
جميعاً.

توجوا انكشافهم بلحظة
اكتشاف.
وانحسروا. حد غدا الهواء
كناية. والشمس رمزاً.
والنهار
الفارغ
الفؤاد
تشبيها.
الزمن المنهك كان طرفة
طيّرها، الآن، إلى أقصى مكان
خال
بهلول. بائخة كانت
لماذا ضحكت زاغاتاً!
كان المدى أوسع مما حسبت.
جمدها شيء على المشهد.

الخوف. فوق البحر
كان زجاجاً، أبداً.
تخزنه صحراء، في حبة رمل.
غابة حدباء من أقل حذر.
وتخفيه سماوات نخيلاً، شاحباً،
أبيض في
كوكب.
لا.
ما عساني فاعل بظل!
لو نتساوى، إنني أعرف، حقاً،
جوهر الطبيعة العميق.